انشطار الذات والصراع في سبيل الامتزاج: قراءة في ومضة "نشوء" لمحمد الحديني

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر؛ جامعة طيبة، السعودية

نشوء

عدوت ورائي ولم أدركني إلا على حافة الهواية.. امتزجنا وصعدنا معا.

ومضة "نشوء" للكاتب المصري محمد الحديني ومضة مروية بضمير المتكلم الذي يسمح للراوي بحرية أكبر في السرد والتصور والتصوير، لأن وجود الراوي وسط الحدث يتيح له أن ينظر إليه نظرة خاصة وأن يستعمل أي نوع من المنظور ويتيح له حرية أكبر في التخييل السردي. ويمكننا أن ننظر إلى مسرح الحدث هنا على أنه داخل شخصية الراوي. فهذا الراوي ينقسم إلى شخصيتين: شخصية تجري وشخصية أخرى تعدو وراءها لتلحق بها، الأمر الذي يدل على انشطار الذات أو على صراع داخلي بين واقع الذات وتطلعاتها، بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون من وجهة نظر الذات. وهذا الانفصال للذات إلى ذات تعدو وتقوم بعملية السرد، وموضوع يسبقها ويتحول إلى شخصية منفصلة عن الراوي يمثل مجرد جانب من جوانب الحالة السردية. فالموضوع الذي يسبق الراوي له ذاتيه الخاصة وإلا لما

انفصل وتحول إلى آخر بالنسبة للرواي. ولذلك من الأدق أن ننظر إلى الانشطار هنا على أنه انشطار إلى ذاتين، وإن كان الراوي لا يرى في الذات التي تنفصل عنه ذاتا وإنما يراها موضوعا يقوم بمطاردته.

والملاحظ هنا أن عملية المطاردة تستمر لوقت طويل، ويدل على ذلك النفي والاستثناء، وهو استثناء يوصلنا مكانيا إلى "حافة الهاوية" وكأن العَدْوَ جاب الأرض كلها، أو على الأقل يشمل كل المكان الذي يتحرك فيه الراوي. وحافة الهاوية ليست مجرد مكان، فالهاوية ذاتها تتخذ دلالة رمزية هنا. ويمكننا أن نبصر في الهاوية هنا كل معانيها المعجمية التي تكتسب هنا دلالات إضافية تُكسبها إياها الذات التي تتصارع مع نفسها والراوي الذي يشارك في الحدث ويسرده من منظور داخلي. فالهاوية اسم من أسماء جهنم، وهي أيضا الأخدود أو الشق في الأرض وهي كذلك الهوة أو الحفرة عميقة القرار، والهاوية أيضا الأم التي فقدت ولدها. وكلها دلالات ترتبط بالضياع الفعلي أو المحتمل/الممكن وبالهلاك والسقوط والانحدار والأفول وما إلى ذلك من دلالات سلبية تماما. وترتبط هذه الدلالات هنا في الغالب بجانب مظلم من جوانب الذات أو أعماق النفس البشرية وكأن الراوي يتصارع من الدوافع السلبية الداخلية التي يمكنها أن تؤدي به إلى السقوط أو الانحدار.

ويمكننا أن ننظر إلى هذا الصراع على أنه صراع نفسي بين الأنا والهو والأنا الأعلى، ولكن هذه النظرة قد تختزل الومضة أو تحد من دلالتها

الواسعة. فهذه المفاهيم النفسية مفاهيم تراتبية أو هرمية تقوم على التصنيف والتفضيل الذي يجعل لبعضها مكانة أعلى من الآخر، ويمثل فيها الأنا الأعلى قوة قاهرة استبدادية تتحكم في الآخريْنِ وتقهرهما، في حين أن الصراع هنا شبه متكافئ وإلا لما استطاع الراوي أن يلحق بذاته الأخرى.

والإدراك في هذه الومضة يدل على اللحاق، ولكنه يحمل في ثناياه المعاني الأخرى مثل البلوغ والفهم والاستيعاب والنضج، لأن المكان الذي يدرك فيه الراوي نفسه مكان رمزي ومجازي، الأمر الذي يُخرج الفعل "أدركه" إلى آفاق رمزية ومجازية. وهذا الإدراك/اللحاق لا يؤدي إلى تعنيف أو لوم أو توبيخ، فالراوي يُدرك أن الصراع الدائر على مسرح روحه صراع جائز لا يحمل تصنيفا أو تقييما أو علوَ جانبٍ من الذات على جانب آخر، بل على العكس، هو صراع ينم عن تعدد وثراء، والراوي يُدرك أن انشطار الذات هنا نوع من الاختزال أو تحجيم الإمكانات. ولذلك تأتي نهاية الومضة لتُحدِثَ امتزاجا بين الذاتين.

ومن الجدير بالذكر أو الملاحظة أن الراوي في نهاية الومضة يجعل الذاتين المنفصلتين فاعلين متكافئين للفعلين "امتزجنا" و"صعدنا"، فكل منهما له وجوده وذاتيته ولا يمكن لأحدهما أن يُخضع الآخر لنفسه أو يقضي على مساحة الحرية المتاحة له. واستعمال ضمير المتكلم الجمع هنا بدلا من المتكلم والغائب المفردين فيما سبق من الومضة يدل على نمو الذات

واتحادها في كيان أكبر يضم الذاتين أو الذات والموضوع، يضم المطارِد والطريدة، ويُحدِثُ حلا للصراع وتناغما بين ما كان يبدو من قبل على أنه متناقضات.

والصعود الوارد في نهاية الومضة قد يكون صعودا أفقيًّا أو رأسيًّا: أفقيا بمعنى أن الراوي كاد جزء منه يسقط في الهاوية، وهنا يكون الصعود انتشال وإنقاذ، ويتم على المستوى الأفقي بأن يعاود الراوي وذاته المنشطرة بعد توحدهما رحلتهما معا بعيدا عن الصراع والمطاردة، وكأن الراوي وصل إلى مرحلة الانسجام أو الرضى التي يصلها الإنسان بعد مرحلة صراع طويلة تنتهي بإدراك أن الصراع المظنون أو المتحقق صراع افتراضي وأن كل جوانب الذات من حقها التعايش السلمي مع بعضها البعض. ورأسيا بمعنى أنهما – ربما الجسد والروح، ربما العقل والقلب، أو أي ثنائية من هذه الثنائيات التي اعتاد البشر تقسيم الحياة وفقا لها – لَعِبا أو تصارعا بما فيه الكفاية ووصلا إلى نهاية الرحلة الاستكشافية، وحان وقت امتزاجهما ليصعدا إلى مرحلة تالية أو يغادرا الأرض/ساحة الصراع والمعركة وينتقلا إلى التوحد في ثنايا الملكوت أو إلى حياة أخرى.

والنشوء الوارد في عنوان الومضة يحيلنا ظاهريا إلى نظرية النشوء والتطور ويفكّكها في آن. فهنا يوجد صراع بين كائنين – حتى لو كانا شطريّ كائن واحد – ولكنه صراع لا يهدف إلى تغلب أحدهما على الآخر

بحيث يبقى واحد فقط ويتلاشى الثاني أو يُقتَل أو يصير طعاما للآخر، وإنما هو صراع في سبيل التكافؤ والتساوي والتوحد والامتزاج والعلو. وهنا تحضر في خلفية الومضة المعاني الأخرى للنشوء بمعنى التجدد والنمو والتولُّد والترعرع وما إلى ذلك من دلالات ترتبط بتجدد الحياة وحركتها، وكأن الراوي يفنّد الأساس الذي تقوم عليه نظرية النشوء والتطور ويؤكد أن الصراع الذي تُعليه هذه النظرية ما هو إلا صراع ظاهري لا يهدف إلا إلى تكامل المتصارعين وبقائهم معا. كما أن النشوء هنا ينقل مسرح الصراع مما بين الكائنات والأنواع إلى الصراع داخل النفس البشرية الواحدة وكأن هذه النفس هي العالم بأسْرِه.